بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٤) سيدنا محمد أعظمُ المُربّين

سبْقُ النَّبي إلى ابْتكارِ أرْقى الأساليبِ التَّربوية الرَّشيدة [١]

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

لم يتزيَّنِ التاريخُ الإنساني المديدُ بأحدٍ أعلمَ ولا أحكمَ من سيدِنا محمدٍ (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ)؛ فقد جمعَ إلى سَعةِ العلم، وبديعِ الفهم، وفنونِ المعرفة؛ حُسنَ الخُلُق، ولُطفَ التعامل، والرِّفقَ في التربيةِ والتعليم، والتواضُعَ للمُتعلمين.

ولما كانت رسالةُ الإسلام عالميةً وخاتمةً للرسالات وجاءتْ للدنيا كلها، فقد كانت أساليبُ النبيّ العظيم، وطرقُه في التربية، والتعليم، والدعوة، والتهذيب؛ هي الأخرى عالميةً تُناسب عالميةَ الرسالة والرسول، وتتَّسق مع صلاحيتِها لكلِّ زمانٍ ومكان.

ولقد حرصَ النبيُّ العظيم (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ) على الاهتمام بأهمّ عناصرِ العمليَّةِ التَّربوية والتَّعليمية: المتعلم، والمعلم، وكانت إشاداتُه بمكانةِ طالبِ العلمِ والعلماء بمثابةِ رَفع الدافعيَّة لديهما، والإشادة بصَنيعِهما.

فقال (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[٢].

السَّبقُ النَّبوي العظيمُ في هذا المجال:

(١) راجع ذلك مفصلا: د/ أحمد علي سليمان: كيف نتوضأ بأخلاق النبوة؟، القاهرة، دار إشراقة، ١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م، ص ١٦٩-١٧٤

(٢) أخرجه الإمامان: أبو داود، وابن ماجه.

ولقد سبَقَ النبيُّ العظيم (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ) في استخدامِ أرقى استراتيجياتِ التعليم، وأفضلِ طُرُقه، وتَطبيقها قبلَ العالم بمئات السنين، ولِمَ لا وهو الذي أرسلَه اللهُ بدستور دَساتير التربية الرَّشيدة؛ وهو القرآنُ العظيم، كلامُ الله الخالد، الذي يُنير القلوبَ، والعقولَ، والنفوس، ويُنير الأبصارَ والبَصائر والضَّمائر، ويجعل صاحبَه في مَعيَّة الجنابِ الأعلى جلَّ وعلا، يرضَى بقضائه، ويَصبرُ على بَلائه، ويَشكرُه على نَعمائه، ويَقنعُ بعَطائه. يؤمنُ بالغيب كما يؤمن بالشَّهادة.. ومن ثَمَّ يعيش هادئَ النَّفس، مُستريحَ البال.. بعيدًا عن الاضطرابات "الفسيولوجية" الداخلية، والصراعات النفسية، والفراغات الروحية؛ لذلك علَّمَنَا نبيُّنا الكريمُ السياحةَ الدائمةَ في كتاب الله المنظور: وهو (الكون البديع)، والسباحةَ المستمرَّةَ في أعماقِ بِحار كتابِه المسْطور: وهو (القرآن الكريم)؛ لنظلَّ على الدَّوام في مَعيَّة الله العظيم.

وقد سبقَ أستاذُ المربّين سيدُنا محمد (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ) في استخدام أرقى مَنهجيّات التربية الرَّشيدة وطُرقها وأساليبها، والتي يَصفونَها حاليًا بأنها أساليب حديثة، ومِن ذلك:

- رفعُ الدّافعية لدى المتعلم.
- ومراعاةُ الوقت المناسب، والظرف المناسب، والمكان المناسب.
- ومُراعاة تنوُّع البيئات.
- ومراعاةُ اختِلاف قُدراتِ النَّاسِ في العِلمِ والحِفظِ والاستيعابِ والفقه والعمَلِ، وأنَّ ما يصحُّ لهذا قد لا يصحُّ مع ذاك.
- وتَفريدُ التَّعليم وضرورةُ مناسبةِ أساليب الخطاب والتَّربية والتوجيه والدعوة لكلِّ حالةٍ على حدَة.

"ومِن ذلك أيضًا:

- التَّعليم بالرفق.
- التَّعليم بالتواضع.
- التَّعليم بالحوار الهادئ المقنع.
- التَّعليم بالحب.
- التَّعليم بحُسن المعاملة والرحمة.
- التَّعليم بالتشبيهات اللطيفة.
- التَّعليم بالمداعبة.
- التَّعليم بتَناسُق العبارات والسَّجْع الحسَن.
- التَّعليم بالتمثيل والصورة الجميلة.

- التَّعليم بالاستفهام وإثارة الانتباه.
- التَّعليم بالوسيلة التعليمية.
- التَّعليم باغتنام المناسبة.
- التَّعليم بالقصة.
- التَّعليم بتغيير الهيئة.
- التَّعليم بالتكرار.
- التَّعليم بإظهار الغضب والانفعال.
- التَّعليم بإجابةِ السائل بما يَتناسب مع إمكاناته العقلية.
- التَّعليم بالتخوُّل –أي: بالتَّعهُّد– بالموعظة.
- التَّعليم بالقدوة"[٣].

نماذجُ تَطبيقية:

– جاءَ أعرابيَّانِ إلى رسولِ اللَّهِ (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ). فقالَ أحدُهما: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟، قالَ: (مَن طالَ عمرُه وحَسُنَ عملُه). وقالَ الأعرابي الآخرُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كثُرتْ علينا، فمُرْني بأمرٍ أتشبَّثُ بِه، فقالَ: (لا يزالُ لسانُك رطبًا بذِكرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ)[٤].

وعندَما سأله عقبةُ بنُ عامر (رضيَ اللهُ عَنْه): يا رسولَ اللهِ ما النَّجاةُ؟، فقال له: (أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليَسعْكَ بيتُك، وابكِ على خَطيئتِكَ)[٥].

– وجاءه رجلٌ فقالَ أوْصِني يا رسولَ الله، فقالَ: (لا تَغْضَبْ). فَرَدَّدَ مِرارًا، قالَ: (لا تَغْضَبْ)[٦].

وهنا استخدمَ النبيُّ العظيم التعليمَ بالتّكرار؛ نظرًا لخطورة هذه القضية، إذ إنَّ الغضبَ قد يؤدّي إلى عَظيم المشكلات؛ لذلك وهو يُعلم أصحابَه والمسلمين مِن بَعده كان حريصًا على تَعليمهم وتَدريبهم على كظْمِ الغَيظ، وعلى مجاهَدة النَّفسِ وضَبطها –فهي أشَدُّ مِن مُجاهدةِ العَدُوِّ– وعلى البُعد عنِ الغضب، فعن أبي هُريرةَ (رضيَ

(٣) انظر ذلك مفصَّلًا في: د/ ناصر بن مسفر الزهراني: السيرة النبوية اليسيرة (مرجع سابق)، ص ٧٩٠–٧٩٨.

(٤) أخرجه ابن مفلح في الآداب الشرعية، ١٤٢٥ إسناده جيد.

(٥) أخرجه الإمام الترمذي في سننه.

(٦) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

اللهُ عَنْه): أنَّ النَّبيَّ (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ) قال: (ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ)(٧).

فلا تَظُنُّوا أيها الناسُ أنَّ الرَّجل القويَّ هو ذلكم الرجلُ الذي يَتمتَّعُ بقوَّة بَدنيَّة كبيرةٍ يَستطيعُ بها أنْ يَصرَعَ الآخَرين؛ ولكنه الرجلُ القويُّ في إرادتِه، القويُّ في رَحمته، الحكيمُ في تَصرُّفاته وفي الحفاظِ على علاقاته، مُتحلِّيًا بأخلاق النبوَّة، قادرًا على التَّحكم في نفْسِه عندَ الغَضبِ وعندَ المشكلات والملمّات والأزمات، الحليمُ الكاظم غَيْظَه، المانعُ نفْسَه عن إيذاءِ النَّاسِ. ومن ثَمَّ فإنَّ مُقاومةَ الغضبِ وامْتلاكَ النَّفسِ عند وُقوعِه تعدُّ مِن فضائل الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي يُثابُ عليها الإنسان. وهنا تأتي أهميةُ التربية على المسارعةِ إلى مَغفرة الله بمقوّماتها الواردة في قولِ الحقّ سبحانه تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (آل عمران: ١٣٣-١٣٦).

– ولما قال له أبو ذرٍّ الغفاري (رضيَ اللهُ عَنْه) أوصني يا رسولَ اللهِ، فقال له النبيُّ العظيم: (اتَّقِ اللهَ حيثما كُنْتَ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسَنٍ)(٨).

وهكذا كان النبيُّ (عليه الصلاةُ والسَّلام) يراعي الفروقَ الفَردية بين الناس، ويُراعي حالَ السائل، وطبيعةَ بيئتِه، ونمطَ شَخصيتِه، وما يَصلح له، وما يُصلحه.

ونظرًا لأهميةِ العبادات والشَّعائر في الإسلام، فقد حرصَ النبيُّ (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ)، على أن يعلِّم أصحابَه والمسلمين من بَعدِه أنها ليست شعائرَ جامدةً تؤدَّى داخلَ المساجد فقط أو اختزالها في ذلك؛ بل علَّمهم بشتى الطرق التَّربوية لتَقريبِ المضامين والأهداف والمرامي والغاياتِ والمقاصد من ورائها بحيث تكونُ قريبةً إلى عقل المتلقّي ووجدانِه، باعتبارها وسائلَ إصلاح الشخص وصَلاحه، وموجّهاتٍ للإنسان إلى طريق الله.. إلى طريق الإيمان.. إلى طريق مُراقبة الله.. إلى طريق حبِّ الخير للناس.. موجّهاتٍ للإنسان إلى طريق الجنة التي أعدَّها اللهُ للمُتقين. فالصلاةُ مِعراجُ المسلم لربِّه، ومن ثَمَّ يجب أن تكون موجّهةً لنا نحوَ الإصلاح والصَّلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وأنه رُبَّ قائم ليس له مِن صلاتِه إلا القيام والقعود!، وأنَّ مَن لم تَنهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فليس له صلاة. وأنَّ الصيام يجب أن نعيشَه ونُعايشه ويعيش فينا، في سلوكنا وقلوبنا ووجداننا وفي كلِّ جَوارحنا على الدوام؛ ليشعرَ الغنيُّ بآلام الفقير ويدفعه إلى العَطاء والسَّخاء، ومن ثَمَّ يُكسب الشخصَ أخلاقًا نبيلة، ويربّي الضميرَ في نفسه ويوقظه ليظلَّ حيًّا يَقظًا في كَينونته، ومن ثَمَّ يحققُ لديه خَصيصةَ المراقبة والإحسان ويُنمّيها على الدَّوام، فعنْ أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّ رَسولَ اللَّهِ (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ) كانَ يَوْمًا

(٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه

(٨) أخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند برقم٢١٤٠٣ وهو: حسن لغيره.

بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يا رَسولَ اللَّهِ ما الإيمَانُ؟ قالَ: (الإيمَانُ أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ ومَلَائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، ولِقَائِهِ، وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ الآخِرِ) قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ ما الإسْلَامُ؟ قالَ: (الإسْلَامُ أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ ولَا تُشْرِكَ به شيئًا، وتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ)، قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ ما الإحْسَانُ؟ قالَ: (الإحْسَانُ أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ....) [٩]، وما أحوجَنا إلى الارتقاءِ لمقام الإيمان، ومَقام الإحسان! وما يقال عنِ الصَّلاة والصيام يُقال عن بَقيَّة الشعائر.

هذا هو سيدُنا محمد رسولُ الله (صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ)، رسول الإنسانية، رحمةُ الله للعالمين، وهذه قبساتٌ من مَكارم الأخلاق التي جاء ليتمِّمَها، ومِن أساليبه التَّربوية الراقية والرَّشيدة التي استفادَ منها الشرقُ والغَرب، وغلَّفوا بعضَها وصدَّروها لنا ثانيةً على أنها من طُرقِهم التَّربوية الحديثة! وسيَظلُّ هذا الرسولُ العظيم نِبراسًا ونورًا للعالمين.

اللهمَّ وفِّقنا لكلِّ خَير، واجعلِ الخيرَ يعيشُ معنا، ويتحرَّك معنا، ويَسيرُ معنا أيْنَما سِرْنا. اللهمَّ وَضِّئنا بأخلاقِ نبيِّك العظيم، ومتِّعنا بزيارتِه ورؤيته ونَيْل شَفاعته يا أكرمَ الأكرمين.

***

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا الصِّيَامَ وَالقِيَامَ وَصَالِحَ الأَعْمَالِ يَا رَبَّ العَالَمِينَ... اللَّهُمَّ أَدْخِلْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى أَهْلِيكُمْ وَأَنْجَالِكُمْ وَأَحْفَادِكُمْ وَذَرَارِيكُمْ أَجْمَعِينَ الفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَالحُبُورَ، وَالسَّعَادَةَ العَامَّةَ التَّامَّةَ الكَامِلَةَ الشَّامِلَةَ الدَّائِمَةَ المُسْتَقِرَّةَ المُسْتَمِرَّةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ... نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ لَنَا وَلِأَوْلَادِنَا، وَلِمُجْتَمَعِنَا وَلِشَعْبِنَا.

اللَّهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا، شِمَالَهَا وَجَنوبَهَا، طُولَهَا وَعَرْضَهَا وَعُمْقَهَا، بِحارَها وَسَمَاءَها وَنِيلَها، وَوَفِّقْ يا رَبَّنا قِيادَتَهَا وَجَيْشَها وَأَمْنَها وَأَزْهَرَها الشَّرِيفَ، وَعُلَماءَها، وَاحْفَظْ شَعْبَها، وَبِلادَ المُحِبِّينَ يا رَبَّ العالَمِينَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ على سَيِّدِنا وَمَوْلانا مُحَمَّدٍ، وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

خادم الجناب النبوي

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

واتس آب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman٥٥٥٥٥@gmail.com

متابعة الصفحة الرسمية، وعنوانها: (الدكتور أحمد علي سليمان)؛ يضمن لك كل جديد https: //www.facebook.com/drahmedalisoliman/

(٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.